« سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ »

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

« نشدتمونى بالله ، أبو الأعور » سعيد بن زيد « فى الجنة »

كَانَ « سَعِيدُ بنُ زَيد » رَجُلاً هادئاً عَاقلاً رزيناً ، وكَانَ دائم التَّأمُّل فى الكَون ، كَثيرَ التفكير فِىَ الأحوَال البَشَر ، وَهَذا أكْسَبَه قَدَراً منَ الحكمَة .

نَشَأَ « سَعيدُ بن زيْد » فى بَيْت لَمْ يَدْخُله صَنَمٌ وَلا وَثَنٌ قَطُّ فَقَدْ كَان أبُوه « زَيْدُ بنُ عَمرو بَن نُفَيل » مُوحِّداً للَّه عَابداً له ، يَدينُ بدين إبراهيم ـ عَليه السَّلام ـ .

عَاشَ زَيْدُ بنُ عَمرو بنُ نُفَيل فى الجَاهلية يكرَهُ الأصنَامَ وَالأوْثَانَ ، ولا يَطيقُ خُرَافَات وأوْهَام النَّاسَ عَنْهَا ، وَقَدْ اعْتَزلهَا قَبْل أنْ يُبْعثَ النَّبىُ ـ صَلى الله عَليه وسَلَم ـ ، وَلَمْ يُخْفى إيمانَهُ باللَّه وبُغْضه للأصنَام ، فَكانَ واضحاً صَريحاً يُرَدِّدُ أمَام النَّاس فى قُريَش كلمَتَهُ الشهيرة :

ـ يَا مَعْشَرَ قُريش ، مَا منْكم اليَوْمَ أحَدٌ غيْرى عَلَى دِيْن إبْرَاهيمَ .

كَان « زَيْدُ بنُ عَمْرو » قَدْ قَرأ فى الكُتب السَّابقة ، وَعَرفَ أنَّ نَبياً

سَيأتي منْ ولَدِ إسْمَاعيل ، ويَدعُو إلى تَوْحيدِ اللَّه ، وإلى مَكارمِ الأخْلاق .

وكَانَ يَنْتَظرُ أنْ يُبْعَث هَذا النَّبي كي يُؤمنُ بدَعْوَته ، ويُؤازرُهُ حَتَى يُبَلغُ رسَالةَ ربَّه ، غَيْر أنَّ العُمرَ كَانَ يقْتربُ منْ مَحطَة الوُصُول ، والأجَلُ كَانَ وَشيكاً لذَا قَالَ لصَاحبه عَامر :

ـ يَا صَاحبي إنَّني أنْتظرَ نَبْيَاً منْ إسْمَاعيلَ يبْعَثُ في هَذَا الزَّمَان ، ولا أرَاني أدْركُهُ ، وأنا أؤمنُ به وأصدقُهُ ، وأشْهَدُ أنّه نَبيٌ ، فَإنْ طَالَتْ بكَ مدةٌ فرأيتَهُ فَأقْرئهُ منّي السَّلام .

وفعلاً ، مَاتَ الرّجلُ الذي كَانَ يُوَحّد اللهَ ، وقُريَشٌ تُعيدُ بنَاءَ الكَعْبَة قَبلَ بعْثَة النّبيَ صَلَّى اللهُ عَليه وسَلم .

كَانَ هَذا الرَّجُلَ هُوَ والدَ سَعيدُ بنُ زَيْد ، الذي عَاشَ حَياةً هادئةَ وادعةَ بعَيداً عَنْ ضَلال القَوم ، وأصْنَام قُرَيْش وخَمْرها ومُجُونها وكَانَ هَذَا الرَّجُلُ الصَالحُ رَحيْماً بالضُعَفاء وكانتْ عادَةُ وأد البَنات خَشيةَ الفَقْر إحْدَى ظَواهر الجَاهليَة ، وكَانَ هَذا الرَجُلُ يَحولُ دُوْنَ وأد البنات اللائي لا ذَنْبَ لهُنَّ . فَإذا رأى مَنْ يُريدُ قَتلُ ابْنَته منْ إملاقَ وفَقر يُسرعُ إليه قَائلاً :

ـ أيُّها الرَّجُلُ ، لا تَقْتلُ الفَتَاةَ وأنَا أكْفيكَ مَئُونَتَها .

ويَأخُذَهَا هَذَا الرَّجلُ الحَنُونُ ويَرْعَاهَا حَتى تَنمْو الفَتَاةُ وتَكْبَر ، ثُمَّ

يُعرضُهَا عَلَى أَبِيهَا قَائلاً : « إنْ شئْتَ دَفَعْتها إلَيْكَ ، إنْ شئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا » وَبِهَذا يُنْقذُ نَفْساً بَرِئية غضَّةً مِنْ بَرَاثِن الجَهلِ وَالجَاهَلية .

فى هَذَا البَيْت الذى امْتَلأ إيماناً بالله وَرَحْمَةً بالبَشَرْ وُلدَ سَعيدُ بْنُ زَيْد ، وَنَشَأ مُتَأثراً بأبيه ، لذَا كَانَ سَعَيد مُتَفَرداً عَنْ غَيْرِهْ من فتْيان قُرَيْش ، وكَانتْ فطْرَتَهُ نَقيَةَ ، وَنَفْسُه ذكيةً وكَانَ عَقْلَهُ راجحاً .

وَعندَمَا سَمعَ سَعيدُ بنُ زَيْد بدَعوة النّبى ، وأنَ مَحَمَداً يَدْعُو إلىَ عبَادَة اللّه وَحْدَه لا شَريكَ لَهُ ، أَسْرَعَ تَتلبْية الدَّعوة والإيمَان بالله رَباً وبمَحَمَد نَبياً وَرَسُولاً وكَانَ المسْلمُون يؤمئذ قلة يَجْتمعَونَ فى دار الأَرْقم بن أبى الأَرْقَم خُفْيَةً ، يَعبُدُونَ اللّهَ وَيَتلقَوْن تَوْجيهَات النّبى ، وَيَسْمَعُونَ القرآنَ .

وكَانَتَ أمُّ جَميل بنْتَ الخَطَّاب أختُ عُمَرَ بن الخَطَّاب هى زوْجَة سَعيد بن زَيْد ، وكَانَت امرَأة عَاقلةَ أيْضاً ، اهْتدَتْ إلى الحَقّ ، وأسْلمْت مَعَ زَوْجهَا للّه رَب العَالمينَ ، وَهكذاَ كَانَ سَعيدُ وَزَوْجَهُ منَ السَّابقين الأولينَ إلى الإسْلام .

* * *

جَعَلَ سَعيدُ بنَ زَيْدْ دَارَهُ مَوئلاً للمُستضَعفَينَ منَ المُسلمينَ الأوَائل حَيثُ يجدونَ فيه الأمْنَ والمَأوى منَ الخَوف وَالجُوع فَقَدْ نَذَر سَعيدُ وزَوْجتُهُ نَفْسَهَا للّه ، والدَّعوة الجَديدة ، يبَذْلُونَ فى سَبيلهَا كُلَّ مَا

يملُكان .

وفي تلكَ الدَّار كانَ يلْتَقي المُسلمونَ الأوائلَ يَتْلُونَ آيات الله ويَعبُدونَ ربَّهم .

وذاتَ يوم كانَ الخَبَّابُ بنُ الأرَت في تلكَ الدَّار المُباركة يَتْلوُ آيات القُرْآن عَلَى مَسامع سَعيد بنَ زَيْد وزَوجَتُه بصَوته العَذْب الجَميل .

وفَجْأةً سَمعُوا طَرْقاً عَلَى البَاب ، فقامَ سَعيدٌ ليَفْتحَ وَهو يَقُولُ :

ـ مَنْ الطَّارقُ ؟

وَجَاءَهُ صَوْتٌ مَهيبٌ منَ وراء البَاب : ابنُ الخَطَّاب !

وفَزعَ مُن بالدَّار لسَمَاع صَوْت عُمرَ بنَ الخَطَّاب ، وخَافُوا أنْ يَبْطشَ بهم لوْ علمَ بإسلامهم ، وكَانَ عُمَرُ وَقْتَها شَديدَ العدَاء للدّعوة الجَديدة .

وأسْرَعَ سَعيدُ بنَ زَيدُ ليُخْفي الخَبَّابَ في مَكان بالبَيت ، وَتَركَ الصَّحيفةَ التي كَانَ يَتلُو منْهَا آيات القُرآن الكَريمَ في وسَط الدار من هَوْل المَوقف .

ثمّ عَادَ سَعيدُ ليَفتَح البَابَ لابنَ الخَطَّاب .

دَخَلَ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب مُتجَهماً غَاضباً ، يَنْطقُ وَجهُهُ بالشَّر وسألَهُم :

ـ مَاهَذه الهَنْهَةُ التي سَمعتُ ؟

فَقَالَ سعيدٌ : لاَ شَيْءَ !

فَقَالَ عُمَرُ وَهُوَ يَتوغَّلُ دَاخلَ الدَّار : لقَدْ أخْبرتْ أنَّكُمَا صَبأتُما واتَّبَعْتُما دينَ مُحمد ، أصَحيحٌ مَا سَمعتُ ؟!

ولَمْ يَنْطقْ أحَدٌ منْهُمَا بكَلْمة ، فَصَاحَ وَهُوَ يَضربُ سَعيدٌ فى وَجْهه :

ـ لماذَا لا تُرُدَّان عَلى سُؤالى ؟

وسَالَ الدَّمُ منْ وَجْه سَعيد ، فَقَامَتْ زوْجُة سَعيد لتَدفَعَ أخَاهَا عُمَر وتَمنعُهُ منْ زَوجها ، فَلَطَمَهَا عُمَر بكفِّه ، فَشَجَّهَا وَسَالَ الدُّمُ منْهَا أيْضاً :

فَغَضَبتْ أمُّ جَميل أختُ عُمر ، وصَاحتْ فى تحد شَديد :

ـ نَعَمْ ، قَدْ أسْلمنَا واتَّبعنَا مُحمَداً ، فَاصنَعْ مَا بَدا لكَ .

فَلمَّا رأى عُمرُ الدِّمَاءَ تَسيلُ منْ وَجه أخته أخَذَتْهُ الشَّفَقَةُ بهَا ، وأطْرَقَ برأسه فى الأرَض ، فَرأىَ صَحيفَةً مُلْقَاةً فَتَنَاوَلَهَا ليقْرأهَا ، فمنَعَتْهُ أخْتُهُ منْ تَنَاوُلهَا ومَنَعَتْهُ منْ قراءتها فتَعَجَّبَ عُمر وسألَهَا :

ـ مَاهَذَا الكتَابُ ؟ . . أعْطنيه !

فَقَالتْ : لا أعْطيكَ شَيْئاً أنْتَ لستَ منْ أهْله ، هَذَا لا يَمسُّهُ إلا المُطهَّرُونَ .

ولَمْ يَزَلْ عُمَرُ بهَا حَتىَ أعْطَتْهُ أخْتُهُ الصَحيَّفةَ ليَقْرأهَا ، بَعدَ أنْ

وَعَدَها بأنّ يُردَّها إليْهَا . فَقَرأ عُمَرُ فيْهَا : « بسْمِ الله الرَّحمنَ الرَّحيمَ » فتَعجَّبَ ، ثمّ عادَ يقرأ ﴿طه (١) ما أنزلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لتشْقَى (٢) إلاّ تذْكِرةً لِمَن يخْشَى (٣) تنزيلاً مِمَّنْ خلَقَ الأرْضَ والسَّمواتِ العُلَى (٤) الرَّحْمنُ عَلَى الْعرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ ما فى السَّمواتِ وَمَا فِى الأرْضِ وما بيْنَهُما وما تحْتَ الثَّرَى﴾ [طه : ١-٦] .

وتَأثَّرَ عُمَرُ بكَلِمَاتِ القُرآن ، وأحَسَّ رَوعةً وَجَلالاً ، فَقَالَ :

ـ مَا أحْسنَ هَذَا الكَلامِ وأكْرَمَهُ !

فاسْتَبشَرتْ أخْتُهُ عنْدَمَا رأتْهُ مُتأثراً مَذْهُولاً ، وتعَجَّبَ سَعيدُ زَوْجُهَا ، وَخَرجَ خَبَّابُ منَ مَخْبَئهُ وَهُوَ يُردِّدُ بفَرحَة : اللَّهُ أكْبَر ! ، واللَّه إنّى لأرْجُو أنْ يكُونَ اللَّهُ قَدْ خَصَّكَ بدَعوَة نَبيّكَ ، فإنّى سَمعْتُهُ يَقُولُ : اللَهمَّ أيّد الإسْلامَ بأبى الحكَمِ بنَ هِشَامٍ ، أو بعُمَر بنَ الخَطَّاب ، فاللّهَ اللّهَ يَا عُمَرَ !

فَقَالَ عُمَر : دُلّنى يَا خَبَّابُ عَلى مُحمد حتَى آتيه فَأسلَمَ .

فَقَالَ خَبَّابَ وهُوَ يَطيرُ منَ الفَرْحة : هُوَ فى بَيْت عنْدَ الصّفَا فى نَفَرٍ منَ أصْحَابه .

وردَّ عُمرُ الصَّحيفةَ إلى أخْته شَاكراً مُعتَذراً ، واعْتَذَرَ إلى زَوْجهَا المؤْمنُ سَعيدُ بنَ زيد ، ثُمَّ خَرَجَ قَاصداً رَسُولَ اللّه ليُعْلنَ بَيْنَ يَديه

* * *

كَانَ سَعيدُ بنَ زَيد يَتحمَّلُ أذَى المُشركينَ فى مكَةَ بصَبر جَميل ، ثمَ هَاجَرَ إلى المدينَة وبَقَى فيهَا مَعَ مَنْ هَاجَرَ منْ المُسلمينَ .

وكَانَ النَّبىُ صلَّى اللَّه عليه وسلم يُخططُ لغَزوة بَدْر ، فَأرْسَلَ سَعيدُ بنَ زَيْد فى مُهمَة سرَّية مَعَ طَلحَةَ بنَ عُبيْد اللّه ، وَذَلكَ للإتْيَان بأخْبَار قُريْش فى طَريق الشَّام ، وحَتَى يَتخذَ النَّبىُ قَرارَ الحَرب بَعْدَ دراسَة المَوقف دراسةً مَوضُوعيةً وبَعْدَ أنْ يُكَونَ رُؤيةً وَاضحةً عَنْ أحْوال قُريش ، بحَيْثَ لا يُؤخَذُ جَيْشُ المُسلمينَ عَلَى غَفْلة ، فَيكونُ فى وَضع خَطر .

وَبَدأتْ غَزوَةُ بَدْر ، والتَقَى جَيْشُ المُسلمينَ بقيادة رسُول اللَّه ، مَعَ جَيْش قُرَيش ، ودَارتْ مَعْركةٌ حَاسمةٌ ، كَانَ النَّصرُ فيهَا للمُسلمينَ .

وَعندَمَا عادَ طَلحةُ وسَعيدُ بنَ زيد منَ تلكَ المُهمَة كانَتْ المعَركةُ قَدْ انْتَهتْ وهُزمتْ قُريشُ هزيمةً قُتلَ فيهَا نَفَرٌ منَ المُشْركينَ ، وأسرَ فيهم عَدَدٌ كَبيرٌ ، وفَرَّ البَاقُونَ منْ أرَض القتَال .

وَحَزنَ سعيدُ بنُ زيد لأنَّهُ لَمْ يشْتَركْ بنَفسْه وبسَيفه فى غَزوة بَدْر ، وعنْدَ تَوْزيع الغَنَائم جَعَلَ رَسولُ الله لسَعيد بنَ زيد وَطَلْحة سَهْمينَ مثْلَ مَنْ شَهدَ المعَركَة وَقَاتَلَ ، والحَقُّ أنَّهُمَا قَامَا بمُهمَة كبيرة أفَادتْ

جَيشَ المُسلمينَ وَعَجَّلَتْ بالنَّصرَ ، وذَلكَ بمَا كَانا يَبْعثَان أخبَاراً عَنْ قُرَيْش ويُشاركُ سَعيد بنَ زَيد فى بَقيَّة الغَزَوَات مَعَ رَسُول الله ، وفى المَعَارك التى خَاضَهَا صَحَابةُ رَسُول الله منْ بَعدْه وَعَاشَ حَيَاتَهُ زَاهداً وَرعاً .

* * *

وولَىَ الخلافَةَ أبُوبكر الصِّديق ، ثُمَ جَاءَ عُمرُ بنَ الخَطَّاب وإذا بسَعيد يُقَاتلُ فى سَبيل اللّه مَعَ المُسلمينَ فىَ الشَّام ، وكَانَ أبُوعُبيدةَ قَائدَ جُيُوشُ المُسلمينَ هُنَاكَ ، ووَقَعَ اختيارُهُ عَلَى سَعيد بن زَيد لَيتولَى مَنْصباً ، فَرفَضَ سَعيدُ أنْ يكونَ والياً لدمَشْقَ ، وآثَر الجهادَ فى سَبيل اللّه لَعلَّهُ يَحْظَى بالشَّهادَة فىَ سَبيل اللّه .

وَيكْتبُ سَعيدُ إلى أبَى عُبْيدة بنَ الجَراحَ طالباً إليه إعفَاءَهُ منْ تَولَّى هَذَا المَنْصبَ الرَّفيعِ ، ويَكْتُبُ إليهَ رسَالةً يَقُولُ فيْهَا :

ـ « سَلامٌ عليْكَ ، فإنِّى أحْمَدُ اللَّهَ الذى لا إلهَ إلا هُوَ ، أمّا بَعْد . .

فإنى مَا كُنتُ لأوثرَكَ وأصْحَابكَ الجهَادَ علَى نَفْسى وَعلَى مَا يُدْنيْنى من مَرضاة رَبّىَ ، فَإذَا أتَاكَ كتَابَى هذَا فابْعَثْ إلىَ عَمَلكَ مَنْ هُوَ رَاغبٌ إليَه منِّى فإنّى قَادمٌ عليْكَ وَشيَكاً إنْ شَاءَ اللهُ تَعالىَ ، والسَّلامُ عليكُم .

وآثرَ سَعيدُ بنَ زَيد أنْ يكونَ جُنْدياً في صُفوف الجَيش الإسلامي على أنْ يتولى مَنْصباً قيادياً يُرغبهُ في الدُّنيا ويَشغلهُ عَنْ مَرضاة ربه ، وظَلَّ زَاهداً في الدُّنيا قَالياً لها ، ولمْ يَستغلَ مَنْصب أمير المؤمنين عُمَرَ بنَ الخَطَّاب في تحقيق مآربَ شَخصية لهُ ولأسْرَته ، بَلْ كَانَ يَزدادُ بطَاعته للَّه قُرْباً منْ ربه وعُلُوَّ منزلة ، لهذا كَانَ مُستجابَ الدَّعوة .

* * *

ذَاتَ يوم ادَّعتْ امرأةٌ تُدْعَى أروَى بنتُ أوس أنّه ظَلَمها وَجَارَ عَلَى أرْضها وشَكَتْهُ إلى مَروان بنَ الحكَم أميرُ المدينَة ، فتَعجَّبَ سَعيدُ منْ افْتَرائها عليه ، وقَالَ للنَّاس :

ـ أتَروْنَني ظَلمتُهَا وَقَدْ سَمعتُ رَسُولَ اللّه ـ صلَّى اللّهُ عليه وسلمَ ـ يَقُولُ : « مَنْ ظَلَمَ شبْراً منْ أرض طَوَّقَهُ اللّهُ يومَ القيامَة منْ سَبْع أرَضينَ » .

ثُمَّ اتَّجَهَ إلى السَّمَاء وَقَالَ : « اللَّهُمَّ إنْ كَانَتْ كَاذبةً فَلا تُمتهَا حَتَى تُعمى بَصَرهَا وَتَجعلَ قَبْرهَا في بئرهَا » .

وكَانتْ المرأةُ ظَالمةً لَهُ ، وتَمْضي الأيامُ ويَستجيبُ اللّهُ دَعوةَ عبْده المَظْلوم فَذَهبَ بصرُ المرأة ، وأصْبحتْ تَتَعثَرُ في سَيْرهَا ، وَوَقَعتْ في بئْر دَارهَا ومَاتَتْ ، ولَمْ يَستطيعُوا إخْراجها ، فَكانَ هَذَا قَبْرَهَا .

وَعندمَا بَلَغَ سعيدُ بنَ زَيدْ منَ الكبرِ عتيَاً ، وَجَاوزَ السَّبعينَ منْ عُمره آثَرَ البَقاءَ فى المَدينَة مُجاوراً لمَسجد رَسُول الله صلّى الله عليه وسلم لينعمَ بالقُرب منْ حَبيبه رَسُولَ اللّه ويستنْشقُ عَبقَ الأيامِ الغَالية فى صُحبة النّبى ، وَيتَذكرُ يَوماً جَميلاً . .

ذَاتَ يَوم إلتَقَى سَعيدُ ببَعض أصْحَاب النَّبى فَقالَ لَهُمْ : أشْهدَ عَلى التّسعة أنّهُم فى الجَنّة ، ولوَ شَهدتُ على العَاشرِ لَمْ أثمَ .

فَقَالوا لَهُ : وكَيْفَ ذَلكَ ؟

قَالَ سعيدُ : كُنّا مَعَ رَسُول اللّه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يَوْماً بجَبل حراء ، فَقَالَ النّبىُ مُخاطباً الجَبلَ : أثبُتْ حِراءُ ، فإنَّهُ ليْسَ عَليكَ إلا نبىٌّ أَو صديقٌ أو شَهيدٌ .

فَقَالوا له : وَمنْ هُمْ .

فَقَالَ سَعيدُ : رَسُولَ اللّه ، وَأبُو بَكر الصِّديقَ ، وَعُمَر ، وَعُثْمَانَ ، وَعَلىّ ، وطَلْحةَ ، والزُّبيْرُ ، وَسَعْدٌ ، وَعَبْدَ الرَّحمن بنَ عَوفٍ .

فقَالوا لهُ : هَؤلاء تسعةٌ ، فَمَن العَاشر ؟

فَقَالَ سَعيدُ : أنا !

وتحدرت دمعةٌ من عين سعيد بن زيد وهو يستعيدُ ذكرى هذا اليوم العزيز مع الصفوة الأبرار . وكانت تلك بشارةٌ من رسول الله لسعيد ابن زيد بدخول الجنة مع الأبرار جزاءَ إخلاصه لله ، وحبّه لرسول الله وجهاده في سبيل الله .

ومات سعيدُ بن زيد في عام خمسين من الهجرة ليلحق بركب النبيين والصديقين ، والشهداء ، وحسنُ أولئك رفيقاً .

« رضي الله عن سعيد بن زيد »

رقم الايداع: ٢٠٠٥/٩١٩٠